قضية أخلاقية

قصة بقلم وليد اخلاصي

طرق باب بيتي في وحشية ، وكانت الضجة التي احدثها الطارق قد بذرت الاضطراب في داخلي ، وقمت استطلع الامر . فتحت الباب فاذ بشرطي نحيف يحمل محفظة جلدية متآكلة ويمد يمناه بورقة مطوية.

حاولت ان اقول له صباح الخير ، لكن الشقاء الذي كان يزين به وجهه جعلني استسخف الخير في الصباح .

وكتبت توقيع الاستلام على ورقة من اوراق دفتر اثري ، وودعت الشرطي بنظرة اشفاق وهو يحجل مبتعدا .

وعدت الى قهوتي التي بردت بعد ان كاد الحديث بيني وبينه ،ذلك الزائر الصباحي ، يطول وهو يسألني عن اسمي وان كنت انا الاستاذ « سليم الحلبي » نفسه او انني اخوه او صهره او .. وكان الضيق الذي سببه رجل الضوضاء شيئا ثانويا بالنسبة لما حملته لي من مشاعر محتويات تلك الورقة الموجهة الى من المحكمة لحضور جلسة ، اقف فيها متهما باختطاف ولدي لبضعة ايام ، اما خصمي فكان مطلقتي ..

.. وهجمت تلك المرأة على مخيلتي ، تذكرتها تمزق لوحاتي وترمي بها الى طين الشارع . مزقت قلبي وهدمت امن بيتي ، ثم اخذت ولدي ..

ـ ماساة ان يرضع ابني احتقار الاشياء الجميلة في بدء حياته !!

ولم يكن وقتي ليسمح لي ان افكر في مشاغلي ، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة . تركت البيت وجعلت اعد الخطوات وانا اقطع الطريق في هدوء كعادتي .

حدثت نفسي : ـ يجب ان اعود الى الرسم ، القماش بانتظار الوانى كادت يداي تيبسان ، لا بل يبستا حتما ..

واستقبلني بناء المدرسة القديم بجلاله ، اما البواب فقد ابتسم في وجهي ابتسامة علمية . والابتسامة العلمية تعبير اطلقه الاستاذ زهير مدرس الرياضيات على العملية الميكانيكية التي يصنعها فم البواب في كل يوم .

ولم تثر ضحكتي تلك العملية كعادتي ، كان موضوع زوجتي والمحكمة يعسكر في تجويفي الدماغي كما تفعل الابتسامة في وجه ذاك الرجل .

وقد تذكرت ايضا مع الابتسامة العلمية الاستاذ زهير نفسه بعد ان غاب عن المدرسة مدة . وقابلني المدير بانحناءة راس ، فانحنيت كلي حتى احسست بالالم ياكل من جذعي ، حينذاك اكتشفت اني ماعدت شابا ، ولدي اصبح في السابعة .

ولكن الشقي اصبح يحب امه اكثر مما يحبني !

وحين دخلت « صفي » واستقبلني الاطفال تلاميذي بالاحترام ،تذكرت ابني واني احبه ويحبني . وكانت الغرفة دافئة وجدارها الرابع نافذة طويلة تسدها اغصان شجرة تين هرمة ساقها في ارض حديقة قائمة .

ورفع طفل في التاسعة ـ هو اصغر التلاميذ ـ اصبعه يشكو رفيقه انه سرق قلمه ، طلبت من الاخر القلم وعدت الى التفكير من جديد بقضية الاستاذ زهير .

ـ غير معقول ان تحدث له تلك المشكلة !؟

وقفز صبي من وراء الصفوف وهتف : ـ استاذ هل نرسم الوردة ؟

وكانت ثمة وردة بلاستيكية تنتصب في وعاء زجاجي على قاعدة من خشب غير مدهون ، قلت :

ـ ارسموها . « واعقبت صارخا » : واياكم والشغب .

وشرعت الاقلام ، واحدثت اصوات ، الصبيان يتحركون في سرور ورغبة ملحة في الضجيج ، اما انا فكنت افكر في زميلي زهير الذي كتب عليه الشقاء .

ـ وكذلك كتب علي ماهو اعظم . زوجتي حيوان سمين وابني يتيه في الجهالة بعيدا عن ارادتي وخطتي .

ونهرت تلميذا يشد اذن اخر امامه ، كف الصبي عن المضايقة ، اما انا فكنت اغرق في الضيق .

ـ ذهب زهير ضحية اشياء سخيفة .

ولا اعلم كيف طفت قضية زميلي على اموري الخاصة !

بعد قليل تأملت نفسي : في كل زاوية من اعماقي انتصبت شمعة مطفأة ، والكسل الروحي يخيم هناك سحابة ثقيلة الظل .

كدت اكره كل مايتعلق بشيء اسمه « سليم الحلبي » لولا الحركة الغريبة التي قام بها تلميذ وسخ الاظافر والعينين اثناء انشغالي بنفسي، بان ركب ريشة على راسه وجعل يقوم بحركات كالهنود الحمر .

غضبت وضحكت حتى استوى الامران لدي ولكني رأيت ان عقوبته امر محتم فاتجهت نحوه وفي نيتي ان اوبخه وما ان رأى الى غضبي حتى رمى الريشة من على راسه الى الارض واقعى ككلب مذنب ونظر في استعطاف .

تذكرت نفسي فوجدتها عادت الي .

عدت الى مكاني حيث اراقب التلاميذ ، ولكن ورقة رسم استوقفتني وكانت للطفل الذي في التاسعة وجعلت اراقبه في دهشة .

قلت له : ـ ماهذا يابني ؟

قال في جد بريء وهو يضع طرف قلمه في فمه ويخرجه : ـ زهره!

ـ وهل هذه زهره ؟ الا تعتقد معي انها شيء اخر ، انها وجه امراة.

وكانت في لهجتي مسحة من قسوة اخافت الصبي فابتعد عني فزعا وهو يقول :

ـ هكذا ارى الزهرة ..

سكت . اغرمت بالطفل . كان الذكاء يشع كنجمتين .

ما اشبهه بابني ، وددت لو قبلته اعجابا مني بروعة احساسه ، ولكني تذكرت ..

تذكرت الاستاذ زهير ومشكلته التي هزت المدرسة اياما طويلة ، وكيف الصقت به تهمة هو بريء منها . قيل وقال عن سلوكه الشاذ ،كنت اعلم انه بريء .

نظرت الى الصبي في حنان يحتضن طفولته ، ولم تكن عندي الحرية لاعبر عن حبي .

تركت الغرفة ووقفت مستندا الى الحائط في الممر اغالب دمعه وقفت في حنجرتي وعيني . غلبتني ..

حلب — وليد اخلاصي